البيت

أقف أمام الصورة، أتأملها.. أتأمّل الملامح التي كم أحببتها. أخذني الحنين؛ أسرعت وتناولتها، جلست متكئاً إلى الوراء تعيدني خواطري فيما يشبه الحلم، إلى اللحظات الأخيرة قبيْل وفاتها :

- كيف أنت ياجدّتي؟

كان أبى قد أعدّ لها غرفة خاصة، بها مروحة وتلفاز. لكنها ظلت تحكى لى عن مملكتها التي تغيرت بشىء طارىء غريب.. بيتها القديم منذ دخولها إياه، ذكرياتها الحلوة التي مرت بها، والتي توقن تماما أنها لن تعود؛ لكنها تعيش بداخلها.. شونة التّبْن ومواشينا كيف كانت تنظف المكان، تمسك مرابطها وتقول:

.« هذه مرابط الخير بدارنا».

الفرن البلدي وما كانت تصنع بها من أشهى الأطعمة. أروقة البيت الثلاث والبسطة والكانون وكيف كانت تنضج به الشاي المغلي اللذيذ والوابور الكبْس فإذا جنّ الليل فاللمبة نمرة خمسة للطابق الأسفل ونمرة عشرة للأروقة. الفراخ والبط والأوز التي كانت تربيها على سطْح الدار.

حديثها أشجاني وأعادني لسنوات طفولتي الغالية.. إلى فكرة

هدم البيت وإعادة بنائه من جديد؛ التي رفضها جدي في شيء من الإحتجاج والغضب :

- طوب أحمر، أسمنت وحديد.. هذا اسمه جلْب للأمراض وليس بناء بيت. عندما يواريني الثرى افعل ما بدا لك..

وأنهى حديثه قائلا: « انتهى الكلام في الموضوع» لملم شاله وأصلح عمامته ثم توكأ على عصاه وغادر إلى المسجد بعد سماع صوت الآذان يتردد. ولما قضيت الصلاة، بقيّ أبي جالساً على المصطبة يفكّر.. وكنت ألعب في التراب تحت النخلة، وعلى امتداد الأفق كانت الغيطان رابضه في هدوء وسكينة وما لبثت أن صحت:

- أبي لا تهدم البيت.

قام فزعا ونهرني. فأسرعت ولذت بجدتي.

. قد يكون والدك محقا فى كلامه يا بنى . يريد الوسع . لكن هذا البيت صحيح هو من الطوب اللبن. سقفه من جريد النخيل والطين وذو ثلاثة أروقة فقط لكنه يدفئنا فى الشتاء، ويدخل علينا نسيم الهواء الجميل في الصيف، يعطينا الصحة والبساطة؛ إنه كالصندوق النفيس يحوي ذكرياتنا سر سعادتنا.

كانت الشمس تميل للغروب، أقف في ذهول، ودموعى تنثال بغزارة.. كانوا يوارون

جدي الثرى، وأبي يقف وسط الصف واجما يتقبل العزاء. لم أصدق أن جدي مات ، فقلت:

. إنه يعيش تحت الأرض وسوف يعود. لكن لم تلبث جدتي أن قضت على أملي:

.لا ياولدي؛ ذهب عند رب كريم، لن يعود.

الأيام تمر.. يحضر أبي الطوب، الأسمنت والحديد، ثم يهدم البيت فتتلاشى معه سعادتنا. ابتنينا بيتا متعدد الطوابق؛ كل طابق شقة بها حمام ومطبخ، ثلاثة غرف وشرفة كان البيت نظيفا واستنفذ أموالا طائلة تكفّل أخي الأكبر المغترب في دول الخليج والأوسط في ليبيا بمعظمها.

لكن أول الشاكين كانت جدتي، فعندما جاء الصيف صار المنزل يخزّن الحراة والصهد

أتى لها أبي بمروحة فقالت:

- إنها تفتّت جسمي وتجعله مخزنا للأمراض.

وحين أتى الشتاء كانت أجسادنا داخل البيت تعوي من الصقيع، فكرنا فى المدفأة الكهربائية لها فقالت :

- عظم ذرة الشامي الذي كنا نوقده فى المجمرة ولا يكلف مليما.. أين هو؟

عزفت عن التلفزيون أيضا وأضحى الراديو مؤنسها الوحيد.

استيقظت من حلم يقظتى و اعتدلت بجلستي وأنا أغالب دموعي..

مسحت ما علق بالصورة من تراب.. وذكريات بيتنا القديم كان عبقها لا يزال يملأ جوانحي.